أوضاع الإمبراطورية الرومانية

تعد الإمبراطورية الرومانية من أعظم إمبراطوريات العالم القديم، وذلك بضمها لمراكز الحضارات القديمة بمختلف أعراقها وثقافاتها وعاداتها وتقاليدها، وطبعا هذا باستثناء بعض مواطن الحضارات الأخرى، كالفارسية والهندية. ونجد أقصى اتساع لهذه الإمبراطورية في عهد الإمبراطور تراجانوس Trajanus (98 – 117م)، علما أن نفوذ روما وصل إلى ما وراء حدودها السياسية. وتعود هيمنتها إلى أن السلطة المركزية للإمبراطورية مترامية الأطراف استطاعت أن تَسُنّ قوانينها وتشريعاتها التي تتناسب مع ذلك العدد الهائل من مختلف الأعراق[1].

كما قام الإمبراطور أغسطس Augustus (27 ق.م – 14 م) بوضع نظام سياسي جمع بين نظامين، يتمثل في نظام القياصرة والنظام الجمهوري، حيث في النظام الأول حكم عسكري يعترف فيه الجميع بسلطة سيدهم الأعلى. بينما الثاني حكم جمهوري، أي الإقرار بأهمية المواطنين الرومان في ايطاليا والولايات الرومانية الأخرى، إلى جانب ذلك الاعتراف بسلطة قائد القوات المسلحة. بمعنى أن أغسطس وضع نظام توفيقي بين الزعامة العسكرية الموروثة عن سابقيه للحفاظ على الدولة وسلامتها، وفي الوقت نفسه حفظ مكانة المواطن الروماني وامتيازاته[2].

أزمة القرن الثالث الميلادي في الإمبراطورية الرومانية

تعد فترة حكم الإمبراطور كومودوس Comodus (180–192م) نهاية عصر الاستبداد المستنير، وبداية مرحلة جديدة تميزت بسفك الدماء واشتداد البؤس، إذ أصبحت للجيش سلطة مطلقة يتحكم كيفما شاء في مصير الدولة الرومانية، ومن مظاهر هذه الأزمة:

1 – اختلال النظام وانعدام الأمن وتحكم القادة العسكريين وعزل الأباطرة.

2 – الحرب الأهلية وتوجه الولايات الرّومانيّة للانفصال .

3– تعرض الإمبراطورية الرومانية للغزو الجرماني، وانتزاع بعض الأقاليم بالغرب اللاّتيني.

4– اجتياح الفرس للأقاليم الرومانية في الشام، بل وصلت غاراتهم إلى بحر ايجة وبلغت قوة الفرس ذروتها في حملة سنة 260م ليس هذا فحسب، بل وقع الإمبراطور الروماني فاليريان Valérien أسيرا لدى الملك الفارسي شابور Shahpur(Sapor)[3]. كما أن مملكة تدمر العربية توسعت على حساب الرومان، وامتدت

إلى جبال طوروس شمالا وإلى خليج العقبة جنوبا، واستمرت في الوجود إلى أن تمكن الإمبراطور أورليانوس Aurelienus (270-275م) من دحر قوات الملكة زنوبيا سنة 270م[4]، ملكة تدمر والشرق ذائعة الصيت[5]،

4 – اشتداد سوء الأحوال وتزايد ضغط البرابرة على الحدود الرومانية[6].

ولقد حاول الأباطرة الرومان الدفاع عن حدود الإمبراطورية، وإعادة وحدتها وإخضاع غالة وسوريا، بداية من حكم كلوديوس Clodius إلى غاية ولاية دقلديانوس (270-284م)، وفي السنة الأخيرة، أي284م اختار الجند دقلديانوس إمبراطورا[7]. ويُعد هذا الأخير من أهم الشخصيات البارزة في تاريخ الإمبراطورية الرومانية، نتيجة أعماله الإصلاحية لإنقاذ دولته المتهالكة.

-<u>إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس (284-305م):</u>

1- قيامه بأعظم عمليّة ترميم من أجل إعادة بناء الإمبراطوريّة المتداعية.

2- وجّه دقلديانوس جهوده نحو ثلاثة أهداف أساسية وهي: تقويّة نفوذ الحاكم وإعادة تنظيم الجهاز الحكومي، بالإضافة إلى تجديد نظام الجيش.

3 – إقرار الأمن والنّظام في مختلف الولايات، وإخضاع الثّورات التي قامت في غاليا ومصر وولاية إفريقيا وبريطانيا، كما تصدى لهجمات البرابرة الجرمان على جبهتي الراين والدانوب، وقام بمهاجمة الفرس واسترد منهم بلاد مابين النّهرين سنة 297م.

5 – إنشاء قوة عسكرية متحركة، تتنقل في أي اتجاه وفي أي وقت من أجل حماية الإمبراطورية الرومانية، حسب الظروف ووفق ما يريده الإمبراطور[8]، ومن أعماله في الجانب الاقتصادي أعاد ضرب العملة الذهبية والفضية، وقد لقي ذلك نجاحا[9].

-<u>الحكومة الرباعية:</u>

تشكلت الحكومة من إمبراطورين وقيصرين، حيث أختار دقلديانوس جاليريوس Galerius نائبا له ومقره في نيقوميديا Nicomedia، بينما أختار مكسيميان قنسطنطيوس Constantius ومقره في ميلان Milan. وفي حالة تنحي أحد الإمبراطورين عن منصبه يعتلى مساعده مكانه، وفي الوقت نفسه يختار الإمبراطور

المنسحب القيصر الجديد، على أن تكون فترة حكم الإمبراطور عشرين سنة، ويتمتع القيصر بامتيازات وحقوق مثلما للإمبراطور كضرب العملة مثلا[10].

إصلاحات الإمبراطور دقلديانوس في المجال الإداري:

1 – فصل السلطة المدنية (الإدارية) عن السلطة العسكرية.

2–تعيين ولاة يباشرون الوظائف القضائية بأنفسهم، ولم يسمح لهم بتعيين قضاة، إلا في الحالات الضرورية.

3 – تقسيم الإمبراطورية الرومانية إلى أربعة أقسام كبيرة تعرف بالولايات Prefecturae على رأس كل منها حاكم له صلاحياته وهذه الولايات هي:

أ– ولاية غالة: تتمثل في بريطانيا، غالة، اسبانيا، مراكش(المغرب). **ب** – ولاية ايطاليا : (الأراضي الواقعة على نهر الدانوب والبحر الأدرياتي، ايطاليا، الجزائر، تونس وطرابلس الغرب. **ج** – ولاية ايلليريا: وتضم داسيا، مقدونيا واليونان. **د** – ولاية الشرق: ما تبقى من أقاليم الإمبراطورية الرومانية، ومنها آسيا الصغرى، الشام ومصر. وانقسمت هذه الولايات بدورها إلى اثنتي عشرة وحدة إدارية تعرف باسم Diocesis ، كما تم تقسيم هذه الولايات والأقسام إلى وحدات صغيرة تبلغ المائة.

4–إدماج البلديات في الحكومة من أجل مركزية القرار[11].

التنظيم الحربي في عهد الإمبراطور دقلديانوس:

–إدخال أبناء الجند في الخدمة العسكرية، أي وراثة آبائهم في الجندية.

–إدماج كل الصالحين للجندية والذين لا ينتمون لطائفة (نقابة) ملتزمة نحو الحكومة أو البلدية.

–كل الأفراد الذين لا يملكون مأوى ولا أراضي صالحة للزراعة.

–التزام ملاك الأراضي بتقديم الجنود للدولة[12].

إصلاح النظم المالية والضرائب:

– من أعماله في الجانب الاقتصادي أعاد ضرب العملة الذهبية والفضية، وقد لقي ذلك نجاحا[13]، إذ أنها حازت على ثقة التجار والمتعاملين[14].

–تسجيل كل الأراضي الزراعية الموجودة داخل الإمبراطورية، وتقرير الضرائب عليها بصورة عادلة.

-تحديد كمية السلع المتداولة والتي تعرض للبيع.

-تسعير الحاجات الأساسية والأجور.

وعلى الرغم من تلك الإصلاحات، إلا أنها جاءت متأخرة، نتيجة الوهن الذي ضرب الدولة خلال القرن الثالث الميلادي[15].

الإمبراطور قسطنطين Constantin (305 – 337م)

بعد أن اعتزل كل من دقلديانوس ومكسيميان الحكم آل الحكم إلى نائبيهما، إلا أن ذلك لم ينجح في تسيير أمور الإمبراطورية، إذ تعدد أقطاب الحكم فيها، وأصبح ستة أباطرة يحكمون الدولة الرومانية، ونشبت حرب أهلية ولم تنته حتى سنة 324م، وأصبح قسطنطين السيد الأوحد في حكم الإمبراطورية الرومانية. ونتيجة لبعد نظره بادر بالتعاطف مع المسيحيين، لأنه أدرك أن الانتصار لهم لا محالة، وفي سنة 313م اصدر مرسوما يعترف فيه بالمسيحية، كما فعل قبله جاليريوس سنة 311م، بتسامحه مع المسيحيين[16]. ويقول تيموثي بارنز Timothy Barnes:" في شتاء سنة313/312م بدأ قسطنطين في منح امتيازات لرجال الدين المسيحيين، ورفع مكانة الكنيسة المسيحية في المجتمع الروماني"[17]، وبذلك يكون قسطنطين قد اعترف بالدين المسيحي ومعتنقيه داخل الإمبراطورية. كما أنه في مجمع نيقية سنة 325م أعاد النظر في بدعة أريوس Arius التي أُعتبرت هرطقة، بل حتى الذين يعتنقونها يُعتبرون هراطقة، علما أن قسطنطين لم يقبل بالتعميد إلا وهو على فراش الموت، وكان ذلك في 22 من شهر ماي سنة 337م[18].

تشريعات وقوانين وإصلاحات الإمبراطور قسطنطين:

لقد كانت نظرة الإمبراطور قسطنطين لأفراد المجتمع نظرة احترام، إذ كان من أولوياته أن لا تتشرد الأسر العاملة في ضياع الدولة بعد بيعها، كما يسلط العقاب على السيد الذي يعامل العبيد بقسوة، وبهذا يكون قد فتح آفاقا لأفراد المجتمع بأن يتوقون لحياة أفضل. كما كانت له قوانين لصالح الفقراء والمنكوبين من الفلاحين ومن يعمل معهم في أراضيهم، فضلا عن إصداره مرسوما يحمي بموجبه الأبناء الذين يفقدون أمهاتهم من جشع الآباء، بل يحرمهم منهم في حالة إهمال تربيتهم. هذا بالإضافة إلى العقوبات القاسية على جرائم الاغتصاب، على أن يحاكم مرتكب الجريمة في الولاية الموجود بها لا في موطنه الأصلي، وكذلك تحديد يوم

للراحة أسبوعيا، وحد من المبارزات الدامية المعروفة من قبل[19]. وفي سنة 325م قام الإمبراطور بحظر هذه المبارزات[20]، فضلا عن أوامره بمعاملة السجناء بالحسنى، والهدف من كل ما قام به الإمبراطور النهوض بالدولة والمحافظة على وحدتها[21]. ومن إصلاحاته عسكريا أن تقوم القوات الإقليمية المجندة حديثا بحماية حدود الإمبراطورية، وفي الوقت نفسه الاحتفاظ بجيوش صغيرة مدربة ومتنقلة، وقد تشكلت قواته من رماة السهام والرماح والفرسان، وعلى رأس قواته هناك قائدين أحدهما قائد للمشاة والثاني لقيادة الفرسان، لهما سلطات واسعة على حكام الولايات وكل الموظفين العسكريين[22].

الإمبراطورية الرومانية بعد قسطنطين :

عقب وفاة الإمبراطور، تمكن ابنه قنسطنطيوس من الاحتفاظ بالعرش الإمبراطوري بعد أن تخلص من منافسيه من إخوته، وجعل يوليان Julien قيصرا سنة 355م، وكان من أبرز القادة العسكريين وذا كفاءة في مواجهة القبائل الجرمانية. وكاد النزاع يندلع بين الإمبراطور وقيصره، إلا أن المنية عجلت بوفاة قنسطنطيوس، فأصبح يوليان إمبراطورا سنة 361م، الذي تميز بحياة البساطة والتقشف بعيدا عن الترف، له فلسفته في الحياة. وقد كان يوليان يكره المسيحية، ويبجل الوثنية عنها، كما أنه أخذ الامتيازات من رجال الدين، ووهبها مرة أخرى لكهنة المعابد الوثنية. ومن مراسيمه حرمان تعليم أبناء المسيحيين العلوم اليونانية، لأنهم كانوا رافضين دخول المدارس الوثنية، ومبرره في ذلك أنه لا يحق لمن يعتنقون المسيحية الساذجة أن يتعلموا العلوم الجليلة كالآداب والفلسفة اليونانية. ولما تولى الإمبراطور ثيودوسيوس Theodosius (378-395م) عرش الإمبراطورية، أصدر أوامره بغلق معابد الوثنية وتحطيم أوثانها ومصادرة أملاك الوثنيين، وبهذا ستعود الكفة لصالح المسيحية، بل ستصبح دينا رسميا للإمبراطورية[23].

أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية:

يمكن حصر الأسباب التي عجلت بانهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها في:

أسباب داخلية ومنها: سوء أوضاع الجيش وظهور الحركات الانفصالية، بالإضافة إلى سوء الأوضاع الاقتصادية. أما أسبابها الخارجية فتتمثل في: تزايد الخطر الفارسي من الجهة الشرقية، الذي ألحق بالإمبراطورية هزائم متتالية، كما أن هناك خطرا آخر لا يقل أهمية عن سابقه، والمتمثل في خطر البرابرة على جبهتي الدانوب والراين، إذ عجزت الإمبراطورية عن صد هجمات هؤلاء، كما عجزت عن توفير الأمن لمواطنيها، خاصة في المناطق الحدودية[24].